قراءة الموروث العربي نحو مراتب التحديث الادبي

Reading of Arabic Legacy toward the Levels of Literary Modernization

إعداد

Prepared by

الأستاذ المشارك الدكتور/ بشير احمد يوسف عمر

Associate. Prof .Dr. Bashir Ahmed Youssef Omar

قسم اللغة العربيه والدراسات الإسلامية/ كلية التربية

جامعة البطانة/السودان

Department of Arabic Language and Islamic Studies / Faculty of Education
University of Butana / Sudan

abusufyan104@gmail.com

المستخلص

من المعلوم فطرةً و طبيعةً أن كل أمة تهتم بتراثها وتدافع عنه، وتمجد أعلامه ولعل الأمة الإسلامية والعربية بتراثها الثَّر و مرتكزاتها ضاربة الجذور لا تفتأ تذكره و تتغنى به أكثر من غيرها من الأمم و ذلك لأسباب كثيرة. هدفت هذه الورقة إلى إعادة قراءة التراث الأدبي قراءة تدفع بالأدب إلى مراتب الحداثة. اتبعت الدراسة المنهج الاستقرائي التحليلي وتوصلت إلى عدة نتائج منها أن التراث العربي واسع و متعدد بالقياس إلى تراث العديد من الأمم المعاصرة. سعة الفضاء الجغرافي الذي انتج هذا التراث فضلاً عن عمره التاريخي الذي يقارب ألفي عام. إن مشكلة التراث تكمن في طريقة التفاعل معه فهي وليدة الذهنية التي تصور و تعالج هذا التراث. ضرورة قراءة التراث العربي قراءة موضوعية ومنهجية متأنية حتى نتمكن من فرز الإيجابي منه فهو كم هائل متناثر في بطون الكتب والدواوين. ضرورة استلهام المفيد من آليات وطرائق منهجية للتعاطي مع قضايا التراث العالمي. التراث العربي مليء بالشارد والوارد والغث والسمين والغريب والقريب ولذلك كانت الحاجة ماسة إلى إعادة عرض ذلك التراث وانتقاء ما يجد فيه القارئ المعاصر ما يألفه ويحبه و يفيده. التراث العربي رسالة مفتوحة تخاطب الإنسان على اختلاف زمانه و مكانه، فقراءة الماضي لفهم الحاضر في ضوء الماضي. توصي الدراسة باستحداث وسائل لقراءة التراث العربي قراءة يقظة منتبهة حتى تحقق الفوائد العظيمة التي نرجوها لرفعة الأمة و تطورها.

الكلمات المفتاحية:

التراث – القراءة و إعادة القراءة – الحداثة – التفاعل – التعاطي – استلهام.

Abstract

It is innately and naturally known that each nation concerns with and defends its legacy. It glorifies its savants. The Muslims and Arab nation with their rich legacy of firm principles remember and intone their legacy more than other nations for many reasons. This paper aimed to re-reading the literary legacy, in a way it impels it to the levels of modernization. The study followed the inductive analytical method and arrived at many results, some of them are: Arabic legacy is vast and various analogously to the many other modern nations; the problem of legacy is in the way of reaching to it; it is the incipience of mentality that portrays and tackles it. Necessity of subjective, methodological, and unhurried reading to enable us of sorting out it's positive content which is of a great deal scattered in books and divans; necessity of supplying the inspiration for beneficial mechanisms, and methodological ways for dealing with the cases of world legacy ; Arabic legacy is full of familiar and unfamiliar valuable and invaluable, and strange and usual, so that the need was hard to review the legacy and select what the modern reader familiarize, loves and benefits from and Arabic legacy is an open message addresses mankind at different time and in different places. So, reading the past to understand the present on the light of the past. The study recommends modernizing tools for reading Arab legacy advertently and carefully to achieve the great benefits needed for prospering the nation.

Key Words:

Legacy – Reading and Re-reading – Reaction Modernization – Dealing – Supplying the Inspiration.

مقدمة

يتوقف تطور اللغة العربيه وآدابها :قراءة وتحليلا على المرتكزات العلمية والتاريخية التي بوأت هذه اللغة مقاما حضاريا متميزا. ومن هذه المرتكزات إعادة قراءة التراث العربى؛ والتي تمثل عنصرا مهما كونها تكشف عن جماليات النص وخصائصه الدلالية. ومن جانب آخر فالقراءة الناقدة اليقظة تنقل الأدب العربي إلى حركة الفكر البشري. وهي التي تحيل القارئ إلى آليات صناعة النص الأدبي ومدى فاعليته في تحقيق عنصر الإقناع لدى المتلقي. فألفاظ اللغة هي التي ترسم معالم الحضارات وبفضلها وصلت إلينا ذخائر العلم والأدب .

التراث في اللغة والاصطلاح

جاء في أساس البلاغة في معنى ورث: ورثته المال، وورثت عنه و منه: أي آل إليّ منه. ومن المجاز هو في إرث مجدٍ، والمجد متوارث بينهم. (الزمجشري،1982:464) وفي الاصطلاح هو بنية معرفية تاريخية منفتحة على حقب و عصور تاريخية متلاحقة، فهو حياة متصلة، يؤخذ غدها من حاضرها و يمتد أمسها إلى يومها، وهو المكوّن لوجدان الأمة. (عصفور،1992:87)

ومما هو معلوم أن قضية التراث وكيفية قراءته قد شغلت النقّاد زماناً، وقد أفاضوا قراءات متعددة و متنوعة، ورغم هذا الكم من القراءات، إلا أنهم لم يوجدوا نَسَقاً متفَقاً عليه في قراءة التراث في كل أصناف العلوم الشرعية و الإنسانية و حتى في المادية.

ولعل غياب التعريف الوافي لقضية المصطلح العلمي في التراث هو وراء هذا التشتت وهذا الاختلاف. (البوشيخي،2004: 157) وبالتالي فإن إيجاد المصطلح العلمي المناسب لقراءة التراث، يعد المدخل الصحيح لقراءته. وسعياً لتحقيق هذا الهدف لا بد من إيجاد وسائل تعين على تحقيقه ومنها:

1- حصر ما تم انجازه من بحوث في مصطلحات قراءة التراث.

2- تنسيق جهود الباحثين أفراداً أو مؤسسات وفق خطة علمية منهجية واضحة.

3- اعتماد الدورات التدريبية لتنمية قدرات الباحثين.

إن الافترَاض والمنطلق لهذا البحث، هو أن مكانة أي أمة، ومقامها الحضاري بين الأمم يقوم على ركنين أساسيين هما عقيدتها الدينية وموروثها الثقافي.

ومن أخطر ما أصاب النظام المعرفي من تشوهات وانحرافات، ما تَمَثّل في الخصومة بين القديم والجديد أو بين الأصالة والمعاصَرة. ولم تسْلم منه حتى المناهج والوسائل التعليمية التي تعالج قضايا التراث، وهكذا فقدت الأمة وجهتها التي تهيئ لها مدارج الانطلاق، الذي يقوم على ترجمة الولاء للأمة إلى منهج، واستيعاب التراث والبناء عليه، وفهم واستيعاب الحضارة الغربية والاستفادة من منجزاتها بعد تصفيتها بمصفاة عقيدة الأمة وثوابتها وقيمها.

ومن جهة أخرى، فإن هناك مشكلة في التعامل مع التراث، فكثيراً ما يعتبر التراث موازياً في منزلته للنص المقدس وهذه الظاهرة سابقة عند المسلمين عامتهم وخاصتهم على حد سواء، حيث لا يجوز لأي متأخر توجيه أي نقد علمي لأي من كبار العلماء السابقين. نعم لا لتجريح العلماء والهيئات ولكن المراجعات النابهة والاستدراكات اللطيفة هي جوهر قضايا العلم و التعلم.

إحصاء التراث

ما هو معلوم أن للعرب تراثاً ضخماً يجلّ عن الحصر، وكما قال أبو عمرو بن العلاء: "ما وصل إليكم من كلام العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم شعر وعلم كثير". وقال: "ما ضاع من الشعر إلا عُشْرَه، وما بَقِيَ من النثر إلا عُشْرَه". (ابن قتيبة:37)

ورغم هذه الحقائق والثوابت إلا أن بعض الأدباء والنقاد، يحاول حصر التراث العربي حصراً مصنفاً لا كمّاً، فقد تحدث الدكتور مندور، عن أهمية إحصاءِ أعمال السابقين قبل أي عمل آخر، فقال في الباب الأول من كتابه (الميزان الجديد): " الآن، وقد نهض جيلنا يحق لنا، بل يجب علينا أن نُحْصي التراث لنرى ماذا عمِل من يكبُرنا سنّاً، وماذا بقيَ علينا أن نعمل لنسير على بيّنة كما ساروا، واثقين أن مراجعة القيم ورسم المنهج وتخطيط الأفق هو دائماً من عمل الشباب عند نضجه، إذ سرعان ما تُسَلّمنا الحياة بطول معاشرتنا لها إلى المحافظة، إلا أن نستثني العبقريات الفذة التي تظل شابة أبد السنين". (مندور،1994: 7)

ماهية التراث و كيفية قراءته

مما لا شك فيه، أن التطور سنّة كونية مطردة في كل مجالات الحياة، وهذا التطور – بطبيعة الحال– يقوم على التجارب والتراكمات، لا الاعتباط والمصادفة، وبالتالي فالناظر إلى التراث الثقافي المكتوب يرى فيه إسناد اللاحق إلى السابق في تتابع لا يكاد ينقطع أو يقف عند حد وبالتالي لا يمكن أن نرى استقلالاً فكرياً يميّز التالي عن السابق. قال الشاعر: (كعب بن زهير:85)

ما أرانا نقول إلا معاداً ** أو معاراً من لفظنا مكرور

أو كما قال الإمام علي رضي الله عنه: "ولولا أن الكلام يُعاد لنفد" (القلقشنجي،1987: 322) وكان نتاج ذلك أن انغلق النص الأدبي على نفسه ردحاً من الزمن، إلى أن ظهرت بوادر التجديد والتحديث في العصر العباسي، ثم كان للثورة العارمة ممثّلة في مدرسة البعث والإحياء في العصر الحديث والتي عكفت على دراسة التراث الشعري والأدبي وطرائقه ومناهجه، وقد أفلحت في فتح مغاليق النظام الشعري وإفلاته من مأزق آليات النقد القديمة وإن ما ذهب إليها البارودي كان رداً على طريقة القدامى في التفكير، إذ يقول:

كم غادر الشعراء من متردم ** ولرب تالِ بذّ شأو مقدم. (البارودي: 98 . 594)

واللغة العربية حاملة الأدب العربي– في تجلياتها الكاشفة – قادرة على اختراق العصور ومخاطبة الأزمنة، حاملة عطرها وشذاها وإشعاعها الساطع المتوهج لتخاطب القلوب والعقول وتمس الفكر والوجدان . (الزيات،1940: 58) فالإيمان باللغة العربية ونصها الإبداعي وطن جميل حيث يهتز معنى الوطن، فتصبح اللغة بكل ما تحمله وطناً بديلاً مسكوناً بالكلمات. (شوشة،2009: 6)

إن هذا البحر الزاخر كما يسميه ابن خلدون (ابن خلدون:313) يحتاج منّا إنتاج معرفة معاصرة تعتمد الفكر المعاصر، وتضع له ما يناسبه من الأفكار والقواعد، سيما و إن تفاوت طبقات الكلام في البيان العربي بحسب تفاوت الدلالة. فالحديث عن التراث، هو دعوة إلى استلهامه من جهة مما يتطلبه من ربط مع الحاضر ومعطياته، ومن جهة أخرى، فالقديم– بطبيعة الحال– متغلغل في الجديد والجديد لابد له أن يكون صادراً عن القديم بمعنى من المعاني.

وعلى ذلك فإن التراث يسهم في تشكيل الحاضر الذي يقوم بإرشاد التراث وتقويمه لإعادة فهمه ومضامينه، ففعاليّة التراث مصدرها قدرته على التوجيه وإبراز العبرة وضرب المثل، فهو خبرات جاهزة، وفروض تجاوزت مرحلة الاختبار، وهي في كل الأحوال دروس مفيدة وقيم راسخة، أنتجتها أمم صقلتها التجارب وعركتها الأيام والسنون.

فقراءة التراث العربي من منظور حداثي تعد إسهاماً حقيقياً في خدمته و إثرائه، مع المحافظة على مسحته الجمالية زماناً و مكاناً.

إن اعتماد التراث والاسترشاد به، هو الجسر الحقيقي للوصول إلى الغايات المنشودة في الحاضر، وفقاً لتوفر الوعي السليم بالحاضر مع الإحاطة الواعية بالتراث والقدرة على تحديد منافذ التواصل معه والإفادة منه. (راضي، 2005: 16)

وفي واقع الأمر فإن التراث لا ينحصر في المطبوعات أو المخطوطات، بل يتعداها إلى كل موروث، بما في ذلك العادات الاجتماعية والتقاليد الشعبية، حتى يصل ذلك إلى سلوك المجتمع في المأكل والمشرب وأسلوب الحياة عامة. (ابن خلدون:313)

وإذا كانت قراءة التراث تعني استرجاعاً واعياً لمكوناته، وربط الحاضر ومستجداته بذلك الموروث، فإن القرآن الكريم هو المثال الأعظم لتلك القراءة، إذ ليس للمسلمين موروث مكتوب أعظم منه في التأثير على حياة الأمم والشعوب. ومن أهم مظاهره: انتشار اللغة العربية في غير بلاد العرب، وصيرورتها لغة للعلم والمعرفة عند كافة المسلمين، بل كان القرآن الكريم مصدراً لعلوم أخرى كثيرة .(السيوطي:127/2) قال تعالى: (ونزلنا إليك الكتاب تبياناً لكل شئ) سورة النحل ـ أية 89، ولهذا فقد أثار القرآن الكريم عند نزوله حركة فكرية نقدية عند المسلمين بل وغير المسلمين، فنبه إليه الأذهان ؛ لما جاء به من جديد في أساليب التعبير والبيان، وجذب إليه الأفئدة والأسماع، بما جمع وحوى من رائع الكلم، فلم يسعهم إلاَّ التسليم بروعة أثره في النفوس والعقول. (سلام:75) وعلى هذا فقد اهتم المسلمون بالقرآن الكريم وعلومه ومن أبرزها:

1-علوم المعاجم والألفاظ.

2-علوم التفسير والتأويل والإعراب والغريب.

3-علوم المحكم والمتشابه.

4-علوم السيَر والأخبار والوصف والعظات والعبر.

5- كما احتوى القرآن الكريم على معارف وعلوم ما زال صداها يتردد بعثاً، استكشافاً واستشرافاً في الفلك والطب والأدب والهندسة والحساب وغيرها من الصنائع والحرف، بل إن هناك مصنفات في اللغة والأدب قد حظيت بقدر وافر من الإطراء والتقريظ، وظل الناس زماناً يتناولونها بالشرح والتحليل والحواش. فكل هذه الجهود تمثل شاهداً على قضية إحياء التراث، مصدّقة على اتصال اللاحق بالسابق في تسلسل علمي بديع.

وكما تمت الإشارة بأن أكمل الموروثات عند المسلمين هو كتاب الله تعالى، فإن أهم جوانب الأزمة المعرفية تكمن في طريقة تعاملنا مع التراث المكتوب والمسموع إذاً فلابد من نقلة نوعية تعيينا على استيعاب مشكلات عصر التدوين وهي مشكلات ضخمة وهائلة.

ولم تكن هذه المشكلات مقتصرة على القرآن وعلومه، بل شملت كثيراً من كتب التراث، الأمر الذي أظهر البون الشاسع بين النص القرآني والواقع النسبي الذي تعيشه الأمة. (أمني،1988: 61)

لقد حققت هذه الأمة في انطلاقتها الأولى انتشاراً كبيراً، أنقذ الإنسان من أميته وأطلقه من عقال تصوراته الفاسدة، فاسترجع كل ذلك التراث الصافي الذي لوّثته المفاهيم الخاطئة.

إن خصائص الوعي التي يمكن أن يقدمها القرآن الكريم للإنسان في رحلته الحالية يمكن أن تشكل بداية الطريق لاستعادة الوعي والعودة إلى التراث من خلال مقاماتٍ بوعي تراثي أو تاريخي يحاول أن يستحيي حقائق الواقع التاريخي. فالوعي المفاهيمي الذي سيمنحه القرآن الكريم للعربي المعاصر، هو وعي يجعل من هذا الإنسان العربي قائداً وفاعلاً في قضايا أمته والعالم حوله. (حاج حمد،2005: 177)

التراث والقراءة

تعد قضية التراث، إحدى القضايا المهمة في الفكر العربي المعاصر، إذ أنها شغلت المفكرين العرب زمناً طويلاً، وشكّلت رأس الرمح في الجدل الفكري والنظري، وقد اختلف العلماء كثيراً في مسائله، وموضوعاته، حتى عن جدوى البحث عنه والتفكير فيه، فضلاً عن دوره في بناء المستقبل.

كذلك اختلف هؤلاء الأعلام حول كيفية قراءة هذا التراث والمناهج الملائمة لتحقيق الغايات المنشودة، وفي واقع الأمر فان التراث العربي جزءً لا يتجزأ من ثوابت الأمة، بل يمثل لها الدعامة والأساس الذي تنطلق منه. (الجابري،1991: 39)

إن النزوع المتنامي للتفكير في التراث هو الذي دفع المفكرين لترتيب العلاقة بين أجزائه بالصورة التي تجعله يؤسس للهُوية العربية وفقاً لمتطلبات العصر. (الجابري،2009: 46)

وبالتالي يُعد التراث مستودع الأفكار والرؤى والتصورات تأخذ منه الأمة ما يفيدها في حاضرها ويسهم في دفع حركة التقدم.

وظيفة التراث العربي

تكتسب قراءة التراث العربي أهمية قصوى عند الأدباء، فهو يعد مكوّناً محورياً في الثقافة العربية القديمة والحديثة، وقد شكل جسراً للتواصل بين اللغة العربية والعلوم الأخرى، ومن الأسباب القوية التي أسهمت في طرح مسألة وظيفة التراث العربي ظهور العلوم الحديثة المرتبطة باللغة من نحو، علم النفس اللغوي، علم الاجتماع اللغوي، وعلم اللغة التقابلي.

وعلى هذا الأساس فإن قراءة التراث تقوم على إعادة الاعتبار له عبر تأصيل مفاهيمه وتحليلاته على ضوء الثقافة العربية الشاملة. وبهذا فإن القراءة التأصيلية تسعى إلى إثبات سبق التراث إلى كثير مما وصل إليه الفكر اللغوي المعاصر وهي – بلا شك– تمجيد للتراث وتأكيد لإثبات أن الفكر اللغوي الحديث هو امتداداً للفكر اللغوي القديم. (راضي،2005: 17)

منهج المعرفة عند علماء العربية

يحتاج المطلع على التراث اللغوي والأدب العربي، إلى منهج قراءة ومقاربة، كل ما جدّت أمورُ في المنهج والمعرفة، وفي طرق الكتابة والتأليف، فمنهج القراءة المعتمد يُخرج التراث اللغوي من جديد، شريطة أن يضع القارئ نصب عينيه استئناف الأسس المعرفية الراسخة، التي تشدّ بنيان العلوم العربية والإسلامية؛ حتى يتمكن القارئ العربي من معاودة الإطلاع على الإطار المعرفي للغة العربية، وسَبْر أسسها المعرفية ؛ كونها نابعة من النسق العربي ذاته، وإن كل نسق من أنساق المعرفة ينبغي أن يُقرأ من مقدماته وأسئلته التي تفصح عنه، وعن مراميه ومقاصده. ومما هو معلوم فإن علوم العربية قامت منذ نشأتها على أسس كلامية وأصولية تشهد بتماسك مشروع التصنيف العلمي في الذهنية العربية والإسلامية. (خليل،2017)

لقد تبين من خلال استقراء مصنّفات العلوم اللغوية والعلوم الإسلامية الأخرى، أن المقاصد الكبرى وراء حركة التصنيف، لم تتوقف لحظة من ربط الأصول بالفروع والبحث عن المشابهات والنظائر، ومن مفاهيم حديثة نحو: الفراغ والقطيعة المعرفية. (راضي،2005: 16)

ومن المؤكد أن النصوص والمؤلفات التي ينتجها العلماء تصدر عن ثقافة معينة تحدد معالم النتاج العلمي، وتكشف عن خلفياته ومقاصده الفكرية، وتجيب عمَّا ينطوي عليه من أسئلة وفهوم، كانت تشغل أذهان العلماء حتى صاغوا الإجابة عنها على شكل مصنفات، فمنهم من شَعَرَ أنه استوفى العبارة عما كان يرومه، ومنهم من ظلّ سؤال المعرفة متجدداً في ذهنه لا يقنعه ما صنّفه في موضوعه، بل يمثّل حاله ما قاله العماد الأصفهاني: " إنه لا يكتب إنسان كتاباً في

يومه إلا قال في غده، لو غُيّر هذا لكان أحسن، ولو زِيدَ هذا لكان يُستحسن ولو قُدّم هذا لكان أفضل ولو تُرِك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر. (الأصفهاني:597)

المنهج ودوره في تطوير قراءة التراث

في هذا الجزء تناول البحث المناهج ودورها في تطور قراءة التراث. وذلك برصد الخطاب النقدي العربي المعاصر على المستويين المفهومي النظري والمنهجي الإجرائي، والسعي للاستفادة من المناهج الحديثة لقراءة التراث العربي قراءة معاصرة وفقاً للآليات والتصورات الجديدة.

تستمد قضية المنهج أهميتها، من كونها تمثل حجر الزاوية في نظرية المعرفة، فلا تكاد المعارف الإنسانية تتطور وتتقدم، إلاَّ إذا توفرت لها الأدوات المنهجية الملائمة. وقد أكد العلماء على أن الارتقاء بالتفكير لتحقيق المعرفة الصحيحة يستوجب بالضرورة وضع قواعد وأسس تحدد علاقة الذات العارفة لموضوعها. (أبو ديك،1981: 52)

ولما كانت إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر في جوهرها امتداداً لما شهده النقد الأدبي في الغرب، لذلك يتوجب الوقوف على أهم المناهج النقدية عند الغربيين والتي تتسم باختلافاتها وتعددها، وغزارة المادة المتعلقة بها وما توفره من آليات إجرائية في قراءة النص الأدبي. و قد أصبحت الدلالة هي محور مناهج النقد و نظرياته، وأخذت أبعاداً مختلفة منها:

1- البعد المضموني

مثّل هذا البعد محوراً جامعاً، التقت حوله مجموعة من المناهج النقدية الحديثة، التي تعود بأصولها إلى دائرة العلوم الإنسانية والتي اكتسبت صفة العلمية، بعد أن أحكمت مناهجها ونحت منحى الدراسة الموضوعية القائمة على الاستقراء، وهذه العلوم هي علم التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع. وقد وجد العلماء في هذه العلوم ما سوّغ لهم توظيف مناهجها في دراسة النصوص الأدبية. وبذلك نشأت ثلاثة مناهج نقدية، هي المنهج التاريخي، ومنهج التحليل النفسي، والمنهج الاجتماعي. والذي يجمع هذه المناهج، هو توجيه الاهتمام إلى مضامين النص الأدبي بالدرجة الأولى، أو كيف يعبّر الأدب عن الإنسان فرداً أو جماعة. (الحسون،2014: 105)

فالمنهج التاريخي، يُرجع عوامل نشأة الأدب إلى المعطيات التاريخية والاجتماعية والسياسية التي ينشأ فيها الأديب، وبذلك تُدرس مضامين النص باعتبارها انعكاساً لتلك

المعطيات. أما المنهج التحليلي النفسي فإنه ينظر إلى الفن عامة والأدب على وجه الخصوص باعتباره نوعاً من الإعلاء والتصعيد، يمكن من خلاله اكتشاف نفسية الأديب، وما كان يعتمل فيها من عقد ومركبات، فالأدب وفق هذا التصور هو المرآة التي ينجلي فيها لاوعي الأديب، وتظهر من خلالها شخصيته وميولاته الدفينة والمكبوتة. أما المنهج الاجتماعي فإن نظرته للأدب، تقوم على اعتبار النص الأدبي بنية متولدة عن بنية أشمل وأعمق، هي البنية الاجتماعية، فهو يعبر عن الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الأديب.

فكل هذه التقنيات النقدية قد كرّست توجهاً مخصوصاً في الدراسات الأدبية، جعل النقد في خدمة العلوم الإنسانية. ومن المعلوم أن هذا النقد قام برفع شِعَارَيْ الواقعية والموضوعية، خلافاً لما كان يتبناه الاتجاه البلاغي الذي كان يُخضِع الأدب لقواعد شكلية بلاغية لا تهتم بالمضامين. (نفس المصدر السابق:106)

2- البعد الشكلي

ويقوم هذا على التركيز على أشكال الأدب الفنية، زاعماً أن خصائص الأدب ومميزاته لا تعود إلى المضامين التي يحملها، بل تكمن في الأشكال التي بواسطتها تُصاغ تلك المضامين وأهم رُوّاد هذا الاتجاه هم الشكلانيون الروس.[1]

فالشكلانيون الروس قد أسهموا بدراستهم للشعر والنثر في تحويل مركز الاهتمام من المضمون إلى الشكل، وهو ما يكون به الأدب أدباً، وبذلك فقد استبعدوا المعطيات الخارجية المتعلقة بالأديب، وبعصره، ومجتمعه، وركزوا الاهتمام على النص الأدبي، باعتباره بنية مغلقة ومكتفية بذاتها، وتتوفر على مقوماتها الخاصة. وتبعاً لذلك فقد اعتبروا أن دراسة تطور الأشكال الأدبية. يجب أن تكون بمعزل عن الملابسات النفسية والاجتماعية. وبالإضافة إلى منهج الشكلانين الروس جاء فردينان دي سوسير الذي أوجد منهاجاً ومفاهيماً جديدة في مجال اللغة والدراسات الأدبية، ومن أهم هذه المفاهيم: الآنية والزمانية، اللغة والكلام، الدال والمدلول، وقد كان لتمييز دي سوسير بين هذه الثنائيات دور أساسي في بناء منهج جديد لدراسة الظاهرة اللغوية دراسة وصفية بنيوية تنظر إلى اللغة باعتبارها شكلاً مجرداً، له نظام قابل للوصف والدراسة العلمية ؛ بالبحث في العلاقات القائمة بين وحداته الدُنْيا. (محمد مفتاح،1985: 119)

[1]-اسم أطلق على مجموعة من النقاد الروس، عاشوا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وعلى رأسهم فيكتور شيكلوفسيكي وقد أطلق عليهم هذا الاسم تهجيناً لمذهبهم.

لقد كان لهذه المبادئ التي ظهرت عند الشكلانيين الروس وعبر دي سوسير في مجال الدراسات اللغوية صدى مباشراً في الحركة النقدية، حيث تغيرت النظرة إلى الأدب باعتماد مناهج نقدية جديدة لعل أهمها: البنيوية والإنسانية والأسلوبية، ولقد رأى النقاد اتفاق هذه المناهج في ثلاث نواحٍ أساسية: هي دراسة الآثار الأدبية دراسة آنية، واستبعاد العناصر الخارجية المتعلقة بظروف النشأة، والتركيز على وصف شكل النص الأدبي، عبر الوقوف على بنية أدبيته ومقوماتها. فالأدبية التي أصبحت تمثّل موضوع علم النقد، أُعتبرت خاصية كامنة في شكل الأدب وأسلوبه، لا في مضامينه ومعانيه، ومن ثم سادت نزعة إلى شَكْلَنَة الأدب، والبحث في لغته، باعتماد آليات علمية تُفضي إلى استخراج نتائج محسوبة ودقيقة. (المصدر السابق: 122)

ومن الملاحظ في هذا الاتجاه الشكلي في دراسة الأدب، أن مفهوم النص قد أصبح مفهوماً مركزياً، تتمحور حوله القراءات، لتفيد الدراسات الأدبية دلالات ومعانٍ جديدة، فقد كان للوعي بهذه الفروق، أثر عميق في توجيه الدراسات الأدبية المعتمدة على مناهج النص وجهة مختلفة عن تلك التي سلكها النقّاد القدامى، فالتركيز على النص في ذاته وبعيداً عن مُنْشِئِه، والظروف المحيطة به، مكّن من إظهار ما تختزنه النصوص الأدبية من أسرار فنية تتجلّى في بنيتها أو لغتها أو أساليبها.

3- البعد الدلالي

وقد ظهر البعد الدلالي، ما بعد البنيوية، فلم يعد شكل الأدب هو ما يشغل النقّاد، بل أصبحت دلالته هي التي تستأثر باهتمامهم، لقد أدى التركيز على الدلالة – واتخاذها محوراً للاهتمام– إلى ظهور رؤىً ومقاربات جديدة فتحت النص الأدبي على العوالم المحيطة به، سواء كانت تلك العوالم متصلة بالنصوص الأدبية الأخرى أو بالقرّاء، باعتبارهم فاعلون رئيسيّون بما تضيفه تجاربهم في القراءة من دلالات متجددة وغير متناهية، أو بالمعطيات الثقافية والسياسية والاجتماعية العامة، بوصفها مقاماً واسعاً يُسهم في إنتاج الدلالة وتوجيه المعنى عند المُبدِع، وعند المتلقي، وهذا ما يُعرف بنظرية التناص التي ظهرت مع جوليا كرستيفا GULIA KERISTVA وآخرين في بداية القرن العشرين كما ظهرت أيضاً نظريات جديدة أسهمت في إعادة قراءة التراث منها: نظرية التقبل وهي تُعنَى بعلاقة الجمهور المتقبّل للنص، كما ظهرت مفاهيم جديدة مثل جمالية التقبّل، وافق الانتظار والقارئ الضمني والمسافة الجمالية وغيرها.

وبعد هذا التطور في مضمار النقد، أصبح البحث عن كيفية إنتاج الدلالة في الأعمال الأدبية، هو الشغل الشاغل للنقاد، وقد أدى التركيز على هذا الجانب إلى نتائج مهمة أبرزها: الإقرار بتعدد المعاني، وأن التأويل هو الآلية المثلى لقراءة الأدب وفهمه داخل الحركة الدائمة والتطور المستمر في الخطاب النقدي وهذا كفيل بنقل الخطاب من المحلّية الضيقة وانتشاره في ثقافات أخرى كثيرة. (محمدأركون،2005: 5)

الوعي المنهجي عند النقاد العرب

إن ظاهرة الوعي المتنامي بإشكاليات النقد والقراءة وخاصة نزعة التحديث، والتي برزت من خلال المقارنة بين المذاهب الأدبية، كونها تمثّل تيارات فكرية وفنية واجتماعية تناصرت كل الآداب الكبرى على نموها ونهضتها وتجلّى ذلك من خلال عدة مظاهر منها:-

1- ما يتعلق بتأثير المستشرقين من خلال تطبيق أساليب البحث التاريخي، وقد عدّها طه حسين الموجة الكبرى للنهضة العلمية في دراسة الأدب. (حسين،1990: 10)

2- متابعة الحركة النقدية في الغرب ومواكبة مستجداتها، وهو ما يتجلي في ترجمة الأعمال الأدبية الغربية، فكان كل ذلك مصدراً لتزويد النقد العربي المعاصر بالمعارف النظرية والآليات الإجرائية فالواجب المعرفي في قراءة التراث يدفع للتبصر بما عندهم والإضافة العلمية الجادة. (القزامي،1994: 10)

ويرى أحمد حسن أهمية عملية الترجمة، كونها تمثّل المنجز الإنساني الذي يساعد على تطوير أدواتنا العلمية وتصوراتنا النظرية وإجراءاتنا العملية. (أبو الحسن،2004: 5)

3- إعادة قراءة المعاصرين للتراث النقدي، فقد تأثر المعاصرون بالمناهج الغربية وقلّلوا من قيمة التراث النقدي عند القدماء واتهموه بالغثائية وعدم الرؤية. (حسين: 52)

غير أن هذا الرأي مردود عليه، وقد صدر ممن تأثّر بالفكر والمناهج الغربية، فقد كان للعرب بعد عصر التدوين مناهج نقدية تقوم على القيم والمعايير العلمية الواضحة. (مندور،1969: 17)

4-هذا المظهر يبدو في الحرص على اعتماد المناهج النقدية الحديثة في قراءة التراث الأدبي، باعتبارها نقلة نوعية يمكن أن تؤدي إلى تغيير الفكر العربي في معاينة الثقافة والإنسان على وجه العموم. (كمال: 8)

وعلى الإجمال فإنهم يعتبرون أن الممارسة الإجرائية باعتماد المناهج الحديثة في قراءة التراث الأدبي، هي الإسهام الفعلي الذي يمكن من خلاله اختبار كفاءة هذه المناهج وتعديلها في ضوء ما تقود إليه التجربة العملية.

وقد حدد النقاد المعاصرون معيارين اثنين لقراءة التراث . (يوسف،2004: 63)

1- امتلاك المعطيات النظرية، والتمكن من الآليات المنهجية الحديثة ؛ باعتبارها وسيلة مهمة للانخراط في المعاصرة.

2- ضرورة إعادة قراءة التراث، بطريقة تتجاوز الحدود التي توقّف عندها القدماء، وقد التزموا في هذا عدّة مسارات لإبراز تطور المناهج النقدية:

1) القراءة التاريخية

وتقوم هذه القراءة على إعادة ترتيب الدواوين الشعرية، وقد قسّموا حياة الشاعر من خلال هذا الترتيب إلى أطوار ومراحل، حيث يكون الشاعر في طور النشأة أقرب إلى التقليد والمحاكاة ثم يليه طور الكهولة والنضج، حيث تَظهر فيه مقومات مذهبه الشعري، ثم يأتي الطور الأخير وهو طور الشيخوخة التي يتطبع فيه الشاعر بطابع التأمل والحكمة وتجئ أشعاره تبعاً لذلك.(البهيتي،1982: 78)

2) القراءة النفسية

وهي تبحث عن العلاقة بين نفسية الشاعر وشعره، في ضوء مقولات علم النفس التحليلي. (النويهي: 95)، وقد عدّوا الجانب النفسي في العمل الأدبي هو الخيط الذي يربط قصائد الشاعر.(المازني،1971: 135) وجميع هذه الآراء تعتبر الإبداع الفني تعبيراً عن لاوعي المبدع في إنتاجه الشعري.

3) القراءة الاجتماعية

وهي محاولة قراءة الدواوين الشعرية، باعتبارها ظواهر اجتماعية، مرتبطة بالبيئة التي نشأت فيها فلجأوا إلى عصر الشاعر ومجريات حياته وأحياناً إلى نفسيته باعتبارها تمثّل بؤرة الإبداع ومنشأه، وأحياناً أخرى إلى الجماعة التي ينتمي إليها الشاعر. (لبيب،1980: 33)

4) التحليل الأسلوبي

المنهج الأسلوبي يقوم على الإحصاء والمقاربة ويتركز على دراسة لغة الشعر والبحث في خصائصها الفنية المميزة، وما تتصف به من مدّ و جزر. فالنقّاد الأسلوبيون يرون أن العلاقات

بين الأبيات الشعرية،لا يحكمها مبدأ التجاور، وإنما تخضع لعلاقات تفاعل كالخلايا التي لا تكون لها قيمة إلا في إطار المنظومة التي تنتمي إليها، ويقوم التحليل الأسلوبي على تتبع الظواهر الفنية البارزة في الإيقاع والمعجم والتراكيب والصورة الشعرية والنظر في وظائفها. (الطرابلسي،1992: 116)

وعلى هذا، فإن النقد المعاصر قد أفاد من التحليل الأسلوبي في قراءة الشعر القديم تحوّلاً مهماً في النظرية وفي الممارسة التطبيقية.

5) قراءة الخطاب الشعري

وفي مسار قراءة النص الأدبي، ظهرت فكرة التحول من القصيدة إلى الخطاب، وهو تحول من الشكل إلى الدلالة، وفيه اتساع كبير في المعاني، فقد أضحت الدراسات النقدية تحاول دراسة المعنى وإخضاعه للوصف والتحليل، وقد تجسّد ذلك في بروز اتجاهات جديدة في الدرس اللغوي مثل التداولية والسيميائية وتحليل الخطاب. فكانت الدلالة مجال اهتمامهم –وهي بطبيعة الحال– مجالاً مفتوحاً تتداخل فيه عناصر من النص وأخرى خارجه. (الحسون،2014: 119)

لقد سارع النقاد العرب المعاصرون إلى الانخراط في نقد ما بعد الحداثة وحرصوا على الاستفادة منه في قراءة الشعر العربي القديم والحديث. وقد ظهرت نظريات جديدة في مقاربة الشعر منها منظور التلقي ومنظور التناص والمنظور السيميائي.

فمن مظاهر الانفتاح خارج النص: الاهتمام بالقارئ أو المتقبل، باعتباره طرفاً فاعلاً في العملية الإبداعية، وتبدو فاعليته في إسهامه في إنتاج الدلالة من خلال القراءة اليقظة الناقدة والتأويل، ومن ذلك حاولوا دراسة تجربة تقبّل القدماء للشعر العربي من خلال الشروحات، واستصحبوا مفاهيم حديثة مثل: أفق التوقع والمسافة الجمالية ومواطن الاهتمام. (الوأد حسين،1991: 83)

وقد احتشدت الدراسات حول هذا المجال، ومن ذلك ما ذهب إليه حسن البنا عز الدين في دراسته حول ذي الرُّمة إلى أن جدل العلماء حوله، كان تلقياً حيوياً أعاد اكتشاف الشاعر وشعره. (عزالدين،2001: 6)

منظور التناص

إن مصطلح التناص من المصطلحات المستحدثة التي اهتم بها النقاد كثيراً واستثمروه من أجل تجاوز الجنس الأدبي، وطرح صيغة النص المتعدد، والذي يتوالد في الوقت نفسه من نصوص كثيرة سابقة عليه أو متزامنة. (لؤلؤة،1991: 14)

وكما تقول جوليا كريستفا GULIA KRISTIVA: "أن كل ملفوظ حي ينبثق بدلالة في لحظة تاريخية، وداخل بيئة اجتماعية محددة، ولا يمكن أن يفلت من آلاف الأسلاك الحوارية الحية المنسوجة من لدن الوعي الاجتماعي الأيدولوجي، القائم حول ذات الملفوظ، وبالتالي هو نقل لتعبيرات سابقة أو متزامنة في النص الجديد". (كريستيفا،1997: 13)

وبذلك يمكن أن تضيف نظرية التناص تفسيرات جديدة للسرقات الشعرية أو المعارضات أو تحليل الخطاب الشعري، وتطبيق آلياته معتبراً التناص بالنسبة للشاعر بمثابة الماء والهواء والزمان والمكان بالنسبة للإنسان. (محمدأركون،2005: 117)

مما سبق نخلص إلى أن تجارب النقاد المعاصرين في قراءة الخطاب الأدبي عموماً والشعري على وجه الخصوص في رحلة ما بعد الحداثة تدل على أنهم قد تحرروا من هيمنة النزعة الشكلية المنغلقة، إلى آفاق التأويل في فهم الأدب وتفسيره وحققوا بذلك درجات متقدمة في مراتب قراءة النص الأدبي.

الخاتمة

استناداً إلى ما سبق من وصف حول قضية قراءة التراث العربي وتحليلها نحو تجديد الخطاب وتوسيع دائرة المناهج الدلالية توصل البحث إلى عدة نتائج منها:-

1- إن النقد العربي المعاصر قد تطور عبر الممارسة العلمية، بالإفادة من المناهج الغربية لاستحداث وسائل جديدة سيما مناهج النقد الحديث.

2- لا توجد قطيعة حقيقية أو مفتعلة بين القديم والجديد، بل كلاهما يكمّل الآخر لإنتاج قراءات ودلالات مختلفة.

3- مثّل الخطاب النقدي مجالاً مفتوحاً للتفاعل والجدل بين التراث والحداثة، وما زالت تداعياته تتجدد وتنتج المزيد من القراءات والأحداث.

4- التباين في علاقة النقّاد المعاصرين حول مناهج النقد الحديثة بين القبول والاستدراك.

5- إن تعدد القراءات و تنوعها ناتج عن اختلاف المناهج النقدية القائمة على هذه القراءات.

6- إن هذه الجهود في قراءة النص العربي، قد أسهمت في تجديد المعرفة، باعتبار أن القراءة نشاط معرفي متجدد تبعاً لتجديد الآليات والمناهج.

و أخيراً توصي الدراسة باستيعاب ما استجد من طرائق وآليات ومناهج، أِثراءً للمعرفة وتوسيعاً للأطر الدلالية.

المصادر و المراجع

القرآن الكريم.

القرآن الكريم.

1- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد . **المقدمة**، دار نهضة مصر ، القاهرة.

2- ابن قتيبة، محمد بن عبدالله بن مسلم الكوفي، **أدب الكاتب**، ت محمد محي الدين عبدالحميد، دار المطبوعات العربية، بيروت.

3- أبو الحسن أحمد (2004). **نظرية الأدب، القراءة الفهم التأويلي** ،نصوص مترجمة.

4- أبو ديك كمال(1981). **جدلية الخفاء والتجلي**، دار العلم للملايين ، بيروت .

5- الأصفهاني، علي عماد الدين ، الكاتب الوزير المعروف بالأصفهاني المتوفي سنة 597هـ كما أورده ابن فلكان في وصايا العيان.

6- أمني، محمد تقي(1988). **النظام الإلهي للرقي والانحطاط** ، ترجمة مقتدي حسن الأزهري، دار الصحوة للنشر، القاهرة.

7- البارودي، محمود سامي، **الأعمال الشعرية الكاملة** ، تحقيق علي الجارم ومحمد معروف ، دار العودة، بيروت.

8- البهيتي محمد بخيت(1982). **أبو تمام حياته وحياة شعره**، دار الثقافة، الدار البيضاء.

9- البوشيخي (2004). **الشاهد قضايا المصطلح العلمي** ، دمشق.

10- الجابري محمد عابد(1991). **التراث والحداثة، دراسات ومناقشات** ، مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت.

11- الجابري محمد عابد–نقد العقل العربي: تكوين العقل العربي–ط10—بيروت–مركز دراسات الوحدة العربية 2009.

12- حاج حمد، محمد أبو القاسم(2005). **العالمية الإسلامية الثانية**، منشورات المعهد العالي للفكر الإسلامي ، فيرجينيا أمريكا.

13- الحسون، عبدالقادر محمد(2014). **إشكالية المنهج عند النقاد المعاصرين**، الندوة الدولية حول قراءة التراث العربي، جامعة الملك سعود.

14- خليل ،عماد الدين(2017). ***حول عوامل تدهور الحضارة الإنسانية***، مجلة التجديد، العدد 8، ماليزيا.

15- د. محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري(1985) .**استراتيجية التناص** ، دار التنوير للطباعة والنشر، الدار البيضاء.

16- **ديوان كعب بن زهير أو زهير بن سلمى**، دار الجيل، بيروت.

17- راضي عبد الحليم(2005). **مدخل في قراءة التراث** ، ط2 ، مكتبة الآداب ، القاهرة.

18- الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر(1962). **أساس البلاغة** ، دار المعرفة ، بيروت.

19- الزيات، أحمد حسن(1940). **وحي الرسالة** ، مطبعة الرسالة القاهرة.

20- سلام، محمد زغلول، أثر القرآن في تطور النقد العربي، ط3، مكتبة القاهرة .

21- سيميائية التواصل وفعالية الحوار، مختبر السيميائيات، وهران – الجزائر، 2004م.

22- السيوطي، جلال الدين بن محمد،**الاتقان في علوم القرأن**، دار الفكر،بيروت.

23- شوشة، فاروق(2009). **جمال العربية** ،الكتاب العربي الكويت رقم 52.

24- الطرابلسي، محمد الهادي(1992). **تحاليل أسلوبية**،دار الجنوب للنشر.

25- طه حسين(1990). **مقدمة كتاب تاريخ الآداب العربي من الجاهلية حتى عصر بني أمية**، لكارل نالنوي.

26- لؤلؤة ، عبد الواحدة(1991). ناقد عراقي، ***من قضايا الشعر العربي المعاصر***، مجلة الوحدة السنة السابعة العدد 82 الرباط.

27- عز الدين، حسن البناء(2001). **الشعر العربي القديم في ضوء نظرية التلقي والنظرية الشفوية** ، دار عين للدراسات، القاهرة.

28- عصفور، جابر(1992). **قراءة التراث النقدي**، دار سعاد الصبّاح، الكويت.

29- غندور محمد غندور(1969). **النقد المنهجي عند العرب** ، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة .

30- القزامي ،محمد عبد الله(1994). **مقدمة كتاب نقد وحقيقة لروالد بارت**، ترجمة منذر عباس، المقدمة.

31- القلقشنجي، أحمد بن علي(1987). **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، تحقيق دكتور يوسف علي الطويل ، دار الفكر دمشق.

32- كريستيفا جوليا(1997).**علم النص**، ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، دار تبغال للنشر، الدار البيضاء.

33- كمال أو ديك، **جدلية الخفاء والتجلي**.

34- لبيب الطاهر(1980). **سوسيولوجيا الغزل العربي**، الشعر القبلي نموذجاً، ترجمة مصطفى السناوي، بيروت.

35- المازني ببراهيم عبد القادر(1970). **بشار بن برد** ، دار الشعب ، القاهرة.

36- محمد آركون، **القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني**، ترجمة هاشم صالح، ط2، دار الطليعة، بيروت.

37- مندور محمد(1944). في الميزان الجديد، دار نهضة مصر، القاهرة .

38- المويهي ،محمد . **نفسية أبي تمام** ، مكتبة الخانجي ، القاهرة.

39- الوأد، حسين(1991). **المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب**، المؤسسة العربية للتوزيع والنشر.